البذرة السيئة

الاستهداف منذ الصغر

عبدالله صالح بارحمان بفلح

المقدمة:

لقد شهد العالم في العقود الأخيرة تنامي ظاهرة التطرف والغلو في الدين، مما أدى إلى تهديد الأمن والسلم المجتمعي والاقتصادي في العديد من الدول، وخاصة في الدول العربية والإسلامية. ويكمن الخطر الحقيقي في استهداف الأطفال منذ نشأتهم، بزرع أفكار متطرفة تحت غطاء ديني، حيث تستغل الجماعات المتشددة جهل الأطفال وضعف وعيهم، لتشكيل جيل يحمل فكرًا منحرفًا يهدد مجتمعه مستقبلاً.

الفصل الأول: الاستهداف المبكر للطفل

من أخطر ما يمكن أن تواجهه المجتمعات اليوم هو استهداف الطفولة، تلك المرحلة النقية التي تُعد البذرة التي يُبنى عليها مستقبل الأفراد والأمم. وحينما تُستغل هذه المرحلة في زرع أفكار متطرفة أو منحرفة، فإننا نكون أمام مشروع خطير يهدد الأمن والسلم المجتمعي لعقود قادمة.

الجماعات المتطرفة تدرك تمامًا أهمية الطفولة في تشكيل الفكر، لذلك تتوجه مباشرة إلى الطفل منذ اللحظة الأولى، سواء عبر الأسرة، أو المسجد، أو المدرسة، أو حتى الإنترنت، لتبدأ عملية تشكيل فكره بما يخدم أجندتها الخاصة.

في بعض الحالات، يكون الطفل ضحية داخل بيئة أسرية متشددة؛ فينشأ في جو مشبع بالكراهية للآخر، وعدم قبول الاختلاف، وتقديس العنف على أنه وسيلة للتغيير أو "نصرة الدين". وفي أحيان أخرى، تكون الجماعة قد نجحت في اختراق المؤسسة الدينية أو التعليمية في بعض المناطق، فتنشئ كيانات موازية لتعليم الأطفال، كالكتاتيب أو حلقات التحفيظ غير الرسمية، والتي لا تخضع لرقابة الدولة أو المؤسسات المعتدلة.

وقد تم توثيق حالات متعددة لأطفال في سن الثامنة أو التاسعة تم تجنيدهم فكريًا، بل وتحريضهم على الكراهية والتكفير، بحجة أنهم سيصبحون "فرسان الأمة" أو "جنود العقيدة"، وكل ذلك تحت ستار ديني مغلوط.

ولا يقتصر الخطر على التلقين فقط، بل يتعداه إلى التدريب والتكليف بمهمات، تبدأ من المشاركة في المسيرات، وتصل أحيانًا إلى تنفيذ العمليات العدائية، في مشاهد مأساوية تنقلها وسائل الإعلام وتكشف حجم الجريمة التي تُرتكب بحق هؤلاء الأطفال.

هنا يُطرح السؤال الكبير: من المسؤول؟

الأسرة؟ المدرسة؟ المجتمع؟ الدولة؟

والإجابة أن الجميع مسؤول، وكل تقصير في الرقابة والتوجيه والتعليم يُعد مشاركة غير مباشرة في هذه الكارثة.

الفصل الثاني: استغلال الدين كواجهة فكرية

الدين هو أغلى ما يملكه الإنسان، وهو الرابط بين العبد وربه، ومتى ما استُغل هذا الدين في غير موضعه، انقلب من وسيلة للهداية إلى أداة للضلال. هذا بالضبط ما تفعله الجماعات المتطرفة، فهي لا تأتي للناس بأفكار علمانية أو دنيوية، بل تلبس الغلو لباس الدين، وتُحرف النصوص لتُخفي نواياها الحقيقية خلف ستار من "الشرعية الدينية".

الأطفال هم الأكثر تأثرًا بهذا النوع من الخطاب، إذ لا يملكون القدرة على التمييز بين الصحيح والمحرّف. فتأتي الجماعة وتبدأ بترسيخ مفاهيم مثل "الولاء والبراء" بشكل مشوه، وتغرس في ذهن الطفل أن حب الوطن شرك، وأن طاعة ولي الأمر نفاق، وأن العنف هو الطريق الوحيد لإعلاء كلمة الله.

ويستشهدون بآيات الجهاد وآيات القتال، دون أن يشرحوا السياق الزمني أو المكاني أو أسباب النزول. فيتحول النص القرآني من دعوة للسلام والتعايش إلى رخصة مفتوحة للعنف والدمار.

كما يُعتمد في الغالب على روايات ضعيفة أو مكذوبة، أو يُجتزأ من كلام العلماء ما يخدم الهوى ويُهمَل الباقي.

وقد حذر العلماء الراسخون في العلم من هذا الأسلوب الخطير، مثل سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله الذي قال:

من دعا إلى الإسلام بالسيف دون علم، فقد ضل وأضل، بل لا بد من الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، والتدرج، وبيان الحق، والصبر على الأذى."

ومن هنا، فإن استخدام الدين كواجهة فكرية لتبرير العنف والتجنيد هو أخطر أشكال الخداع، وهو أساس كل مشروع متطرف، يبدأ من الطفل ولا يتوقف إلا عند خراب المجتمع.

الفصل الثالث: التعليم كوسيلة لاختراق العقول

في الأنظمة التعليمية غير المحكمة أو التي تفتقر للرقابة القوية، يكون التعليم هو الطريق السهل لاختراق عقول النشء. فحين يُدرّس طفلٌ في المرحلة الابتدائية مناهج تتضمن أفكارًا عدائية، أو يُعلّمه معلم ينتمي لجماعة متطرفة، فإنه حتمًا سيكون هدفًا سهلًا.

يبدأ الخلل أحيانًا من نشاطات غير منهجية: حلقات دينية داخل المدارس، توزيع كتيبات متشددة، تنظيم رحلات دعوية ظاهرها البر، وباطنها تجنيد فكري.

وتستغل الجماعات المعلمين الذين يتعاطفون مع أفكارهم، فيبدؤون ببث مفاهيم معينة داخل الصفوف مثل:

تحقير غير المسلمين.

التشكيك في الأنظمة الحاكمة.

تمجيد الماضي العنيف للجماعات.

كراهية المرأة وتعزيز التسلط عليها.

تصوير المجتمع كـ"دار كفر" يجب تغييره بالقوة.

وتعتمد هذه الجماعات على التدرّج في زرع الفكرة، فتبدأ بإثارة الأسئلة، ثم تُثير الشك، ثم تقدم "البديل المتشدد" كحلٍّ لكل المشكلات.

ولهذا، اهتمت الدول الواعية، مثل السعودية، بمراجعة المناهج بشكل شامل، واستبعاد كل ما يمكن أن يُستغل من قبل المتطرفين، وركزت على تعزيز المواطنة، والوسطية، والاعتدال.

الفصل الرابع: من الطفولة إلى الشباب المتطرف

في هذا الفصل نتابع مسار الطفل الذي تم استهدافه، حيث ينمو على الأفكار المتطرفة التي غرست في طفولته، ومع مرور السنوات، يصبح فريسة سهلة للانخراط في صفوف الجماعات، بل قد يتحول إلى قائد ميداني أو مفتي فكري، يُعيد تدوير نفس المنهج على غيره.

وغالبًا ما تبدأ أولى خطواته في سن المراهقة، حيث يكون في قمة الانفعال والاندفاع، ويبحث عن هوية، فيجد الجماعة تقدم له "بطولة" وهمية، وتُشعره أنه "مختار من الله"، وأنه سيُغير العالم.

ثم يُجرى له غسيل دماغ كامل، ويُفصَل عن أسرته أو يُدخلها في نفس الدائرة، ويتم عزله عن مجتمعه، وتحريضه ضد العلماء الحقيقيين، وتعظيم شيوخ الجماعة، سواء أحياء أو أموات.

وفي هذه المرحلة، قد يبدأ بالمشاركة في نشاطات متطرفة:

نشر المحتوى المتشدد.

مهاجمة الدولة في وسائل التواصل.

تجنيد زملائه.

الانخراط في عمليات ميدانية أو السفر لمناطق صراع.

ويصل الحال ببعضهم إلى تأسيس أسرة جديدة تحمل نفس الأفكار، لينتج جيل آخر ملوث بالغلّ والتشدد، وهنا تتحول "البذرة السيئة" إلى شجرة مسمومة تؤذي كل من حولها.

الفصل الخامس: الأسرة المتطرفة وتأثيرها المجتمعي

عندما يتبنى أحد أفراد المجتمع فكرًا متطرفًا، فإن تأثيره لا يبقى محصورًا في ذاته، بل يمتد إلى من حوله، وأول المتأثرين هم أفراد أسرته. فالأسرة هي الخلية الأولى في بناء المجتمع، وإذا فسدت هذه الخلية، فإن الخلل يتسرب إلى المجتمع بأسره.

الشخص الذي نشأ على التطرف وتزوج وأنشأ أسرة، غالبًا ما يربّي أبناءه على نفس الفكر الذي تشبّع به، فينشأ جيل جديد داخل دائرة مغلقة من الغلو والكراهية والعزلة عن المجتمع. وغالبًا ما تكون الزوجة إما شريكة في الفكر، أو خاضعة له، وتُمنع من تربية أبنائها بشكل متوازن، فيُنتزع منها دورها الطبيعي، وتصبح مجرد وسيلة لإنتاج أفراد جدد في مشروع الجماعة.

وتتجلى مظاهر تأثير الأسرة المتطرفة على المجتمع في صور عديدة، منها:

تنشئة أطفال يحملون أفكار عدوانية.

مشاركة الأبناء في عمليات تجنيد لأصدقائهم وزملائهم.

بث الكراهية داخل المدارس والأحياء.

تحقير القيم المجتمعية، ورفض الأنظمة والقوانين.

وهكذا تتحول الأسرة إلى "خلية فكرية" قد لا ترفع السلاح، لكنها أخطر ممن يرفعونه، لأنها تُخرج أجيالًا ملوثة فكريًا تُعيد نفس الدورة التخريبية. وبهذا لا يصبح التطرف ظاهرة فردية، بل يتحول إلى سلوك مجتمعي يهدد الاستقرار ويقوّض أسس التنمية.

الفصل السادس: الأثر الاقتصادي والاجتماعي للتطرف

الفكر المتطرف لا يُهدد العقول فقط، بل يهدد الدول بأكملها. فحين ينتشر التطرف، تتأثر عدة مجالات حيوية في المجتمع، من أهمها الاقتصاد والسلم الاجتماعي.

1. من الناحية الاقتصادية:

تؤدي الأعمال الإرهابية أو التهديدات الأمنية إلى هروب رؤوس الأموال والمستثمرين.

تتراجع السياحة، وتفقد الدولة مصدر دخل مهم.

تُستنزف ميزانيات الدول في الأمن بدلًا من التعليم والصحة.

تُفرض قيود دولية على الدول المصنفة كبيئة حاضنة للتطرف، مما يعيق التجارة والتعاون الدولي.

2. من الناحية الاجتماعية:

تنتشر ثقافة الكراهية والشك بين أبناء المجتمع.

تزداد معدلات العنف الأسري والمجتمعي.

تُضعف الثقة في المؤسسات، مما يؤدي إلى مزيد من الفوضى.

تُقوّض القيم الوطنية، ويُستبدل الانتماء للوطن بالانتماء للجماعة.

وهكذا نرى أن الفكر المتطرف، وإن بدأ في ذهن فرد، فإنه يتحول إلى وباء يصيب المجتمع كله، ويشل حركته نحو التقدم، ويُعطل عجلة التنمية.

الفصل السابع: جهود الدول في مكافحة التطرف

أمام هذا الخطر المتصاعد، لم تقف الدول مكتوفة الأيدي، بل بدأت باتخاذ إجراءات حاسمة لمكافحة التطرف، سواء أمنيًا أو فكريًا أو اجتماعيًا.

1. مراجعة المناهج التعليمية:

حرصت العديد من الدول، وعلى رأسها المملكة العربية السعودية، على تنقية المناهج من الأفكار التي قد تُستغل من قبل المتشددين، واستبدالها بمحتوى يعزز قيم التسامح، والاعتدال، والانتماء الوطني.

2. الرقابة على الخطاب الديني:

تم تقنين العمل الدعوي، ومنع الخطباء والدعاة غير المؤهلين من التأثير في الناس، وإنشاء هيئات رقابية تتابع المساجد والخطب، لضمان عدم تسلل الفكر المتطرف.

3. إنشاء مراكز متخصصة:

مثل "مركز اعتدال" في السعودية، الذي يعمل على كشف أساليب الجماعات المتطرفة، ويفضح طرقهم في التجنيد، ويرصد تحركاتهم على الإنترنت، ويفكك خطابهم المضلل.

4. دعم العلماء الوسطيين:

وذلك بإبراز أقوال العلماء الثقات مثل الشيخ ابن باز وابن عثيمين وصالح الفوزان الذين تصدّوا لهذا الفكر المنحرف بالحجة والبرهان، وبينوا للناس أن الإسلام دين رحمة وعدل، لا تطرف ولا تشدد.

5. الإجراءات الأمنية والقانونية:

شملت القبض على المتورطين في نشر الفكر المتطرف، وتقديمهم للعدالة، وتجفيف منابع الدعم المالي والإعلامي للجماعات.

هذه الجهود، وإن كانت مكلفة، إلا أنها أثمرت نتائج عظيمة، وأعادت الأمن والطمأنينة، وقطعت الطريق على من يحاول العبث بعقول الأطفال والشباب.

الفصل الثامن: التجربة السعودية في اجتثاث جذور التطرف

تُعد المملكة العربية السعودية نموذجًا بارزًا في مواجهة الفكر المتطرف، ليس فقط أمنيًا، بل فكريًا وعلميًا أيضًا، وذلك من خلال استراتيجيات متعددة شاملة تهدف إلى اجتثاث جذور التطرف من أساسها.

1. تفكيك الخطاب المتشدد:

عملت المملكة على كشف تحريف الجماعات المتطرفة للنصوص الشرعية، وبيّنت الفرق بين الجهاد الشرعي والإرهاب، وبين الدعوة إلى الله بالحكمة، وبين الغلو الذي يُنفر الناس من الدين.

2. دعم العلماء الوسطيين:

تصدى كبار العلماء في المملكة لهذا الفكر، وفي مقدمتهم:

سماحة الشيخ ابن باز رحمه الله، الذي شدد على أن التكفير لا يجوز إلا بشروط صارمة، وأن الخروج على ولاة الأمر من أعظم الفتن.

الشيخ ابن عثيمين، الذي كان واضحًا في رفضه لفكر الجماعات، وأكد أن طريق التغيير لا يكون بالسيف، بل بالعلم والعمل الصالح والدعوة.

الشيخ صالح الفوزان، الذي فضح الجماعات الحديثة مثل الإخوان والسرورية، وبيّن كيف أنهم يستغلون الدين للوصول إلى الحكم لا إلى رضا الله.

3. كشف ألاعيب الجماعات:

أظهرت السعودية كيف تستغل الجماعات الأطفال والشباب، وتُظهر الزهد والتدين الظاهري، لكنها في الحقيقة تسعى للسلطة والفتنة. وقد فضحت عبر الإعلام الرسمي والمراكز الفكرية هذه الممارسات، مما جعلها دولة رائدة في التصدي لهذا الخطر.

4. طرد المتطرفين من المؤسسات:

فقد تم فصل عدد كبير من الموظفين والمعلمين والخطباء الذين ثبت ارتباطهم بأفكار متطرفة، كما أُغلق الكثير من المنصات والمراكز التي كانت واجهة للجماعات.

5. النتائج:

استقرار أمني فريد في المنطقة.

تعزيز الثقة في الدولة ومؤسساتها.

بيئة آمنة للاستثمار والتقدم الاقتصادي.

نشأة جيل جديد أكثر وعيًا واعتدالًا.

وهكذا أصبحت السعودية اليوم دولة توازن بين التمسك بالدين الحقيقي، وبين رفض الغلو والانحراف، حتى صارت مضرب المثل في العالم في محاربة التطرف.

الخاتمة

إن استهداف الطفل منذ الصغر من قِبل الجماعات المتطرفة يُعد جريمة بحق الإنسانية والدين والمجتمع. فحين يُغسل عقل الطفل باسم الدين، نكون قد زرعنا بذرة مسمومة ستثمر شرًا يمتد لأجيال قادمة.

وقد رأينا في هذا البحث كيف تبدأ الجماعة باختراق الطفل، وتشكيله فكريًا، ثم دفعه نحو الغلو، حتى يصبح أداة بيدهم ينفذ مخططاتهم، ثم ينشئ أسرة بنفس الفكر، فيتسع الخطر ويتحول إلى ظاهرة تهدد كيان المجتمع واستقراره واقتصاده.

وفي المقابل، كانت هناك دول حازمة مثل المملكة العربية السعودية، وقفت بكل قوة لصد هذا الخطر، وعملت على اجتثاثه من جذوره، عبر التعليم، والعلم، والوعي، والأمن، والمكاشفة الفكرية.

فمن هنا، فإن مستقبل المجتمعات لا يُصان فقط بالقوانين، بل بتربية الأجيال، وتحصين الأطفال، وكشف أساليب الجماعات، والتمسك بالعلماء الربانيين، والاعتدال في الفكر والسلوك.

المراجع الشرعية والفكرية

1. فتاوى سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز – دار ابن الجوزي.

2. شرح العقيدة الواسطية – الشيخ محمد بن صالح العثيمين.

3. كتاب: "الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة" – الشيخ صالح الفوزان.

4. موقع هيئة كبار العلماء – السعودية.

5. موقع وزارة الشؤون الإسلامية والدعوة والإرشاد – السعودية.

6. بيانات مركز "اعتدال" العالمي لمكافحة الفكر المتطرف.

7. تقارير إعلامية رسمية من قناة الإخبارية السعودية وموقع واس.

البذرة السيئة: الاستهداف منذ الصغر

المؤلف :

عبدالله صالح بارحمان بفلح